

الملك (الجزء الثاني)

لمن الملك اليوم؟ لله

ثانيًا: فادعوه بها عبادة وعملاً

الواجب الأول: ادفع ضريبة الأملاك

كل مُلْكٍ مَلَكُ اللهُ إياه ما هو إلا ابتلاء:

(ليبلوكم في ما آتاكم).. ولاحظ قوله: (آتاكم) لا (ملَّككم).

فماذا ملكك الله؟!

ابدأ بما اشترك فيه كل الناس: فقيرهم وغنيهم، عزيزهم وذليلهم، سيدهم وخادمهم:

سمعك وبصرك، ومواهبك وقدراتك.

هذه كله أملاكٌ ملكك الله إياها، فهل تستطيع أن تحفظ **أيا** منها، فلا تُسَلِّبها؟!

والجواب: كلا.

قال ابن الجوزي:

«قرأت هذه الآية: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} [الأنعام: 46] ،

فلاحت لي منها إشارة كدتُ أطيئُ منها:

وإن عنى معنى السمع والبصر؛ فذلك يكون بذهولهما عن حقائق ما أدركا شُغلاً بالهوى، فيُعاقب الإنسان بسلب معاني تلك

الآلات، فيرى وكأنه ما رأى، ويسمع وكأنه ما سمع، والقلب ذاهل عما يتأذى به؛ فيبقى الإنسان خاطئاً على نفسه، لا يدري ما

يُراد به، لا يؤثر عنده أنه يبلى، ولا تنفعه موعظة تجلى، ولا يدري أين هو، ولا ما المراد منه، ولا إلى أين يُجمل؛ وإنما يلاحظ

بالطبع مصالح عاجلته، ولا يتفكر في خسران آجلته، لا يعتبر برفيقه، ولا يتعظ بصديقه، ولا يتزود لطريقة، وهذه حالة أكثر

الناس، فنعوذ بالله من سلب فوائد الآلات، فإنها أقبح الحالات»⁽¹⁾.

فانظر **دائماً** لكل ما ملكته بنظرتين:

الأولى:

أنه لا يمكنك التصرف فيه **مطلقاً** كيف شئت، بل قد تُسَلِّبه في أي لحظة.

الثانية: أن تصرفك فيه ابتلاء وفتنة، وكلما زاد ملكك زادت فتنتك، وكلما اتسع سلطانك تضاعفت أعباؤك، وكلما طاب نعيمك زادت مسؤولياتك.

الواجب الثاني: ازهد في الملك

قال عبد الله بن مسعود:

«ما أحد أصبح في الدنيا إلا وهو ضيف، وماله عارية، والضيف مرتحل، والعارية مردودة»⁽²⁾.
وقال الراغب الأصفهاني:

«فأعراض الدنيا عارية في أيدي الناس مستردة، كما قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع... ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وهي من وجه منيحة: منحت الإنسان لينتفع بها مدة، ويذرها لينتفع بها من بعده.

ومن وجه وديعة في يده: رُخص له في استعمالها والانتفاع بها بعد أن لا يسرف فيها، لكن الإنسان لجهله ونسيانه لما عهد إليه بقوله: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ نَسِيِّهِ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً) اغتر بها، فظن أنها قد جعلت له هبة مؤبدة، فركن إليها واعتمد عليها، ولم يؤد أمانة الله تعالى فيها، ثم لما طُوب بَرَدُّهَا تمنع منه وضجر، ولم ينزع عنها إلا بنزع روحه أو كسر يده، وبعضهم - وهم الأقلون - حفظوا ما عهد إليهم، فتناولوها تناول العارية والمنيحة والوديعة، فأدوا فيها الأمانة، وعلموا أنها مسترجعة، فلما استردت منهم لم يغضبوا ولم يجزعوا، وردوها شاكرين لما نالوه منها، ومشكورين لأداء الأمانة فيها»⁽³⁾.

وهذا ما فهمته امرأة أبي طلحة لما قبض ولدها، فصبرت حتى فاض صبرها على زوجها، وانقلب **رضاً** وسكينة فقالت له: إن الله عز وجل كان أعارك ابنك عارية، ثم قبضه إليه، فاحتسب واصبر.

الواجب الثالث: عزة النفس

لأنه لا يخرج عن سلطان الملك أمر من الأمور، ولا فعل من الأفعال، وإلا لم يثبت له المُلْك على الحقيقة. وهو ما يجعل المؤمن **عفيفاً** عما في أيدي الناس، **طامعاً** بما في يد الملك الحق..

قال خليل بن عبد الله العصري عن المؤمن الحق:

تلقاه عفيفاً عن الناس، **سؤولاً** لربه عز وجل، **ذليلاً** لربه، عزيزاً في نفسه، **غنياً** عن الناس، فقيراً إلى ربه.
وقال قتادة **معقياً**:

«تلك أخلاق المؤمن، هو أحسن معونة، وأيسر الناس مؤونة»⁽⁴⁾.

فإن ذاك مُضِرٌّ منك بالدين

لا تخضعن لمخلوق على طمع

(2) الزهد للإمام أحمد 1/135 - ط دار الكتب العلمية

(3) الذريعة إلى مكارم الشريعة 1/278 - أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني - ط دار السلام - القاهرة

(4) الزهد للإمام أحمد 1/410

وهي عزة أوجب ما تكون للعلماء العارفين بمقام الله أكثر من غيرهم، فعن سفيان بن عيينة قال:

دخل هشام بن عبد الملك الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال له:

يا سالم سألني حاجةً..

فقال له: إني لأستحيي من الله أن أسأل في بيت الله غير الله.

فلما خرج في أثره، قال له: الآن قد خرجتُ، فسلني حاجةً، فقال له سالم:

حوائج الدنيا أم حوائج الآخرة؟!

فقال: بل حوائج الدنيا.

فقال له سالم: ما سألتُ من يملكها، فكيف أسأل من لا يملكها؟!⁽⁵⁾.

المؤمن الصادق غناه من أن تثقته بما في يد الله أوثق منه بما في يد الناس؛ ولذا قال أبو سليمان الداراني:

«لا خير في قلب يتوقع قرع الباب، يتوقع إنساناً يجيء يعطيه شيئاً»⁽⁶⁾.

والإيمان بالملك يعلمك أنه لا أحد يملك من أمر ضرك أو نفعك شيئاً إلا الملك، فتقوى على النطق بكلمة الحق، ولا تجبن في

مواجهة من لا يملك من أمرك فضلاً عن أمر نفسه شيئاً.

هذا عمر بن هبيرة والي يزيد بن عبد الملك على العراق يستفتي الحسن البصري في مسألة، فيقول:

إني أمين أمير المؤمنين على العراق وعامله عليها، وقد يبلغني عن العصابة من أهل الديار الأمر أجد عليهم فيه، فأقبض طائفة

من عطائهم، فأضعه في بيت المال، ومن نيتي أن أزدّه عليهم، فيبلغ أمير المؤمنين أي قد قبضته على ذلك النحو، فيكتب إلى أن لا

ترُدّه، فلا أستطيع ردّ أمره، ولا إنفاذ كتابه، وإنما أنا رجل مأمورٌ على الطاعة، فهل عليّ في هذا تبعه وفي أشباهه من الأمور، والنية

فيها على ما ذكرت؟!

فأجابه الحسن:

«حق الله ألزم من حق أمير المؤمنين، والله أحق أن يطاع، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فاعرض كتاب أمير المؤمنين على

كتاب الله عز وجل، فإن وجدته موافقاً لكتاب الله فخذ به، وإن وجدته مخالفاً لكتاب الله، فانبذه يا ابن هبيرة!

اتق الله، فإنه يوشك أن يأتيك رسول من رب العالمين يزيلك عن سريرك، ويخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، فتدع

سلطانك ودينك خلف ظهرك، وتقدم على ربك، وتنزل على عملك..

يا ابن هبيرة..

(5) صفة الصفوة 2/ 446

(6) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 9/ 264 - أبو نعيم الأصبهاني - ط دار الكتاب العربي - بيروت

إن الله ليمنعك من يزيد، ولا يمنعك يزيد من الله، وإن أمر الله فوق كل أمر، وإنه لا طاعة في معصية الله، وإني أحذرك بأسه الذي لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين»⁽⁷⁾.

الواجب الرابع: مجَّد الله باسم (الملك)

وقد جاءت الأدعية والأذكار صحيحة متضمنة لهذا الاسم الجليل، والتوسل به إلى الله رب العالمين كما في دعاء الاستفتاح لصلاة التهجد منه: (ولك الحمد، أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن)⁽⁸⁾.

وما ورد في دعاء استفتاح الصلاة وفيه:

(اللَّهُم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعاً؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)⁽⁹⁾.

وكان النبي ﷺ يقول في دُبُر كل صلاة إذا سلَّم:

(لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير)⁽¹⁰⁾.

وفي الحديث الرائع الماتع:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومُحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يُمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك»⁽¹¹⁾.

الواجب الخامس: حَكَّم شرع الله لا الأهواء..

ألا له الخلق والأمر..

فلأن الله هو الذي خلق، فله الأمر في ما أراد وحكم، وإذا كان الملك المطلق إنما هو الله وحده لا شريك له، فالطاعة المطلقة إنما هي له وحده لا شريك له، فتقدَّم طاعته على طاعة من سواه، وحكمه على حكم غيره، بل لا طاعة لأحد إلا في حدود طاعته، ولا طاعة لمخلوق في معصية الملك.

ولما كان من لوازم الملك لله تعالى الحكم والتشريع كان لزاماً على العباد قبول حكم الله تعالى وشرعه، ورفض ما سواه، والإعراض عن التحاكم لغيره، فالحكم لله وحده.

(7) إحياء علوم الدين 2/ 347

(8) البخاري (1120).

(9) صحيح: صحيح أبي داود عن علي بن أبي طالب رقم: 738

(10) صحيح البخاري في الدعوات باب الدعاء بعد الصلاة (6330).

(11) صحيح: رواه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 6437

وهذا معناه التزام الحكم القدري والشرعي الجزائي..

الحكم القدري: وهو الذي يجري على العبد بغير اختياره، ولا طاقة له بدفعه، ولا حيلة له في منازعته، فالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والرزق بنوعيه المادي والمعنوي، وغيرها تجري على مقتضى قضائه وقدره، فهذا حق الله فيه أن يتلقاه العبد بالاستسلام وترك المخاصمة والاعتراض.

والحكم الشرعي: بالجلل والحُرمة، فقد أرسل الله رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه؛ ليسير الخلق على حكم الله في عقائدهم وأخلاقهم وأقوالهم وأفعالهم وظاهرهم وباطنهم، ونهاهم عن مجاوزة حكمه.

والحكم الجزائي: أي هو الذي له الحق أن يقول لك: لو فعلت كذا تؤجر بكذا، ولو فعلت كذا عوقبت بكذا، فمن تمام مُلكه أن له الأحكام الجزائية من إثابة الطائعين، وعقوبة العاصين، وكل هذه الأحكام تابعة لعدله وحكمته، وكلها من معاني ملكه.

الواجب السادس: اصبر على البلاء

حين يتحقق العبد أن نفسه وأهله وماله وولده ملكٌ لله على الحقيقة، وأن الله جعلهم عنده عاريةً، فإذا أخذها منه فهو كالمعير يسترد عاريته من المستعير، وإنما هو متصرف في ما يملك تصرف العبد المملوك لا تصرف المالك، ولهذا لا يجوز لفقد ما حازه ولا يتسخط، وينجح في اختبار السلب كما نجح في اختبار العطاء.

وفي الحديث:

«ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.. اللهم أجرني في مصيبي، واخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيبتيه، وأخلف الله له خيراً منها»⁽¹²⁾.

الواجب السابع: الدعاء

كل ما أردت وتمنيت حقر أو عظم، من شفاء وصحة، أو أولاد وزوجة، أو مال وسعة رزق، أو نجاح في حياة عملية أو زوجية، أو صلاح في دين مع ثبات ويقين.. كل هذا من يملك خزائنه إلا الله؟! فكيف تترك من يملك كل شي لتقف على باب من لا يملك أي شيء!

هذا حديث عائشة رضي الله عنها **موقوفاً**:

«سلوا الله كل شيء حتى الشُّع، فإن الله عز وجل إن لم يُيسرهُ لم يتيسر»⁽¹³⁾.

وكان بعض السلف يسأل الله في صلاته كل حوائجه حتى ملح عجينه وعلف شاته.

وفي الإسراييليات أن موسى عليه السلام قال:

«يا رب، إنه لتعرض لي الحاجة من الدنيا، فأستحي أن أسألك، قال: سألني حتى ملح عجيتك وعلف حمارك»⁽¹⁴⁾.

(12) صحيح: رواه مسلم وابن ماجه عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: 5764

(13) مسند أبي يعلى رقم: 4560، وصححه حسين سليم أسد، وأخرجه ابن السني رقم: 349 بسند حسن، وله شاهد من حديث أنس في الترمذي وضعفه.

(14) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم 2/ 39 - ابن رجب الحنبلي - ط مؤسسة الرسالة - بيروت

الواجب الثامن: توكل على مسبب الأسباب لا الأسباب

اعلم أنه وحده سبحانه وتعالى الذي يسبب الأسباب، فمرادك يتحقق بالأسباب الأرضية، لكن من يملك هذه الأسباب إلا الملك؟!

والأسباب مطلوبة منك بل مفروضة عليك على أن لا تقف **حاجزًا** بينك وبين الله، وقد تملك **أسبابًا** لكن يُعْطَلها الله كما حدث مع نار إبراهيم عليه السلام لأن الله أمرها بذلك. وراجع شريط ذكرياتك:

◆ كم عملٍ سعيتَ إليه **حينئذ** ثم ندمت عليه!

◆ كم من ساعٍ لسعادة بالزواج من حبيبة، فانقلبت حياته بها **جحيبًا**!

◆ كم من طالب رزق اتسع في جانب، لكن ضاق عليه في جوانب!

◆ كم طالبٍ ولِدٍ وذرية رُزِقَ بهم، ثم أرهقوه **طغيانًا وكفرًا**!

وهذا يدلُّ على أن وجود الأسباب تحت يديك لا يضمن لك بلوغ مرادك كما كنت ترجو، إلا أن يطرح الملك فيها البركة، فتنفع بها، فالذي ملَّكَ السبب هو وحده القادر على أن ينفعك به أو يسلب فائدته عنك؛ **لذا** فإياك أن يتعلق قلبك بالسبب بل تعلق بالمسبب.

ولذا في صحيح مسلم جاء في الرقية:

«بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنٍ حَاسِدٍ، اللَّهُ يَشْفِيكَ، بِاسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ»⁽¹⁵⁾.

فواضح هنا تمام الوضوح أن النبي ﷺ يرقى، لكن الله هو الذي يشفي.

الواجب التاسع: النهي عن التسمي بملك الأملاك أو شاهنشاه

ونحوها من الأسماء التي تدل على التكبر والعلو في الأرض.

قال ﷺ:

(إن أختي الأسماء يوم القيامة عند الله، رجلٌ تسمى ملك الأملاك)⁽¹⁶⁾.

قال ابن حجر:

«واستدل بهذا الحديث على تحريم التسمي بهذا الاسم لورود الوعيد الشديد، ويلتحق به ما في معناه مثل خالق الخلق وأحكم الحاكمين وسلطان السلاطين وأمير الأمراء»⁽¹⁷⁾.

قال ابن القيم:

(15) صحيح: صحيح مسلم رقم: 2186 باب الطب والمرض والرقى

(16) إحياء علوم الدين 2/347

(17) فتح الباري 10/590

«ولما كان الملك الحق لله وحده، ولا ملك على الحقيقة سواه، كان أخنع اسم وأوضع عند الله، وأغضبه له اسم (شاهان شاه) أي: ملك الملوك، وسلطان السلاطين، فإن ذلك ليس لأحد غير الله، فتسمية غيره بهذا من أبطال الباطل، والله لا يحب الباطل. وقد ألحق بعض أهل العلم بهذا (قاضي القضاة) وقال: ليس قاضي القضاة إلا من يقضي الحق وهو خير الفاضلين، الذي إذا قضى **أمرًا** فإنها يقول له: كن فيكون»⁽¹⁸⁾.

ثالثًا: فادعوه بها مسألة وطلبًا

(اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربّي وأنا عبدك، ظلّمت نفسي واعتزّفت بدني، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)⁽¹⁹⁾

يا ملك الملوك..

ارزقني مُلك الدنيا لأسخره في طاعتك، ومُلك الآخرة لأنعم بجنّتك.

يا ملك الملوك..

أوقفني ببابك وقوف العبد المملوك، وعزّفتني مقامك وأنت أصل الغنى والجود.

يا ملك الملوك..

اللهم وقد جعلتني **مستخلفًا** في ملكك، فاجعلني **زاهدًا** في ما ضمنّت لي، **راغبًا** في ما طلبت مني.

يا ملك الملوك..

اجعل المال في يدي لا في قلبي، وأرني فيه شدة اختبارك، ولا تجعلني به من المفتونين بكثرة عطائك.

يا ملك الملوك..

اللهم اجعلني أجود ما أكون بدنياي، وأبخل ما أكون بديني عن كل ما يناله بسوء.

يا ملك الملوك..

لا تُخوِّجني لأحد من خلقك، واجعل استعانتني بك وحدك.

يا ملك الملوك..

اجعل الدنيا في عيني كما هي عندك، لا تساوي جناح بعوضة، واستعملني فيها في ما كل يرضيك عني.

رابعًا: حاسب نفسك تعرف ربّك

هل ترى في المال اختبار وفتنة شديدة قلّ من ينجح فيها؟

هل أخرجت زكاة مواهبك وما منحك الله من عطايا مادية ومعنوية؟

هل تدبرت وتفكرت في نعم الله عليك، وهو نظرت إليها نظرة الاختبار؟

هل طمعت في ما يملك الناس أو حسدتهم على ما يملكون؟

هل تصبّرت إذا نزّع الملك منك الملك؟ وهل تستسلم لحكمه وحكمته؟

(18) زاد المعاد 2/ 311

(19) صحيح: رواه مسلم كما في صحيحه رقم: 771. كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه